مجلّة اللّغة العربيّة المجلّد: 23 العدد: 1 السّنة: الثّلاثيّ الأوّل 2021 ص:493-508

موقف الإبراهيميّ من النخبة الجزائريّة ذات التكوين الفرنسيّ والمزدوجة اللّغة مقاربة في ضوء علم اللّغة الاجتماعيّ

أ: عبد الحفيظ شريف[1]

تاريخ الاستلام: 14-07-2018 / تاريخ القبـــول: 29-09-2019

الملخّص: في ظلّ تعدُّد قدرات الإمام محمّد البشير الإبراهيميّ الفكريّة والقياديّة وتشابُك علاقاته مع الجبهات الاجتماعيّة الكثيرة؛ واجهت الإبراهيمي وضعيّة النّخبة الجزائريّة المثقّفة بالثّقافة الفرنسيّة والمتعاملة باللُّغَة الفرنسيّة، والمتخرِّجة في المدارس الفرنسيّة، وسواء منهم المقيمين في الجزائر المحتلّة أم في فرنسا لاعتبارات اقتصاديّة أو اجتماعيّة أو غيرها، وبين جدليّة جاذبيّة أصول هذه النّخبة، ومؤثّرات عوارض الحالة الاستعماريّة، تُقارب هذه الورقة رؤيّة الإبراهيميّ لهذه الفئة، باستعراض آرائه ومبرِّراته، وما يجب لهؤلاء وما يجب عليهم، وتُتَابع مدى فعاليّة هذه الرّؤيّة، وطبيعة ثمارها على صعيد الإنسان والمجتمع، لتقف في الختام على إمكانيّة إعادة تحيين ما يمكن من تلك الآراء والمواقف على سبيل تجاوُز الشّروخ القائمة تحت مظلّة التّدافُع اللُّغويّ في البيئات الجامعة الواحدة، وذلك من خلال المحطّات الرّئيسة الثّلاث الآتيّة:

1- موقع الإنسان في الحركة الإصلاحيّة الجزائريّة الحديثة.

2- النّخبة الجزائريّة المزدوجة اللُّغة والمثقّفة بالثّقافة الفرنسيّة بين اللُّغة والهُوِيّة.

3- رؤيّة الإبراهيمي لهذه الفئة بين عروبة الإنسان وغُربة اللِّسان.

---

[1] ج. محمّد البشير الإبراهيميّ برج بوعريريج (abdelhafidcharif@yahoo.fr) (المؤلّف المرسل)

Abstract: With his different thinking and leadership capacities and his several social relationship. The teacher Mohammed El bachir El Ibrahimi is faced by the situation of the Algerian elite which is French cultured, bilingual and has French graduation. Either who are residents in colonized Algeria, or in France due to social and economic raisons…and so on between elite origin attraction and the influence of colonial state, the intervention approaches El Ibrahim's view towards this elite through his opinions and his arguments, about their duties and rights, in addition, to what extent this view influence on the human and the society. In the conclusion, this intervention tries to update these views and attitudes in order to exceed the linguistic struggle in the same area. Through three mains stations:

1-Human's position in the Modern Algerian Reform Movement.

2-The Algerian elite bilingual and French cultured between language and identity.

3- El Ibrahim's view towards this elite between human Arabic and tongue foreign.

4- Conclusion.

نصّ المداخلة: لم يكن متاحاً للعلماء المصلحين الجزائريِّين مطلعَ القرن العشرين الكثير من الإمكانات والفرص لبعث حركة إصلاحيّة متينة الأركان، فظروف الاحتلال القاسيّة التي جثمت على صدور الجزائريِّين لنحو مائة سنة لم تدع لهؤلاء العلماء من الرّصيد البشري ولا من المقوِّمات المادِّيّة ما يبعث على الأمل في تحسين أحوال الجزائريِّين ثمَّ إنَّ عامل الزّمن يسابق جهود حَمَلة الإصلاح باللَّيل والنّهار وبين عرصات هذا الوضع الدّقيق الحَرِج تنبثق الرّؤيّة الإصلاحيّة في ملتقى رَجُلَيْن من أبصر رجال الإصلاح الحديث في الجزائر، وتنقدح -بتوفيق الله تعالى- في أذهانهما تفاصيل فكرة الإصلاح بخصوصيّة النّموذج الجزائري.

كانت لقاءات الشّيخين ابن باديس والإبراهيمي في المدينة المنوَّرة سنة 1913هـ الأرضيّة الكبرى لإصلاح الوضع الجزائري المعقَّد والمتشابك، وبعودة الرّجُلَيْن إلى الجزائر شرع كلٌّ منهما في عمل يبدو لأوّل وهلة أنَّه جهدٌ فرديٌّ لا يلبث أنْ ينتكس لعارض ينزل بصاحبه، أو انتقال أو وفاة أو توقيف، وحرص الرّجُلان على أنْ يظهر عملُهُما معزولا إلى حين، وكان قصدُهما المضمَر تحضير حَمَلَة مشروع الإصلاح وبدا التّعويلُ على الإنسان أَصْل ذلك كلِّه ولم يعدّم الرّجلان فهمَ الواقع، وإجادة قراءة التّاريخ وسلامة تفسيره، فكلُّ حركات النّهضة والتّحرير النّاجحة إنَّما كانت برأسمال بشريٍّ نوعيٍّ، تستوي في ذلك فترات الصّفو في التّاريخ الإسلامي، وغيره من دورات حياة شعوب الأرض.

وبالنّظر لما عرف من طبيعة تكوين الرّجُلَيْن العلمي والثّقافي؛ فإنَّ اتِّفاقَهُما على البدايّة بالإنسان تكوينا وتفهيما وتوعيّة راجع إلى طبيعة دعوات الرّسل والأنبياء عامَّة وإلى منهجِ التّكوين النّبوي المحمّدي للقاعدة البشريّة الأولى للدَّعوة الإسلاميّة، ومن ثمّ كان اتِّفاق الرّجُلَيْن في اجتماعهما بالمدينة على هندسة فكرة ممارسة الإصلاح في تصريح الإبراهيمي: "كانت الطّريقة التي اتَّفقنا عليها أنا وابن باديس في اجتماعنا بالمدينة في تربيّة النّشء هي: ألاَّ نتوسّع له في العلم، وإنَّما نربّيه على فكرة صحيحة ولو مع علم قليل[1]".

لقد برزت خلال الفترة لدى رجال الإصلاح وِجْهتان كان في إحداهما الإبراهيمي برؤيته في "صرف القوَّة كلِّها، وتوجيه الجهود متظافرةً إلى التّعليم المثمر وتكوين طائفة جديدة منسجمة التّعليم مطبوعة بالطّابع الإصلاحي علماً وعملا مسلَّحة بالأَدلَّة، مدرَّبة على أساليب الدّعوة الإسلاميّة والخطابة العربيّة، حتى إذا كثر سوادُ هذه الطّائفة، وكان منها الخطيب، وكان منها الكاتب ومنها الشّاعر ومنها الدّاعي المتجوّل؛ استخدمت في

الحملة على الباطل والبدع على ثقة بالفوز[2]" ويصرّح الإبراهيمي بأنّه كان "من أصحاب هذه الفكرة في ذلك الوقت[3]" في ما كان هناك فريق آخر من المصلحين يدعو إلى الثّورة على المبطلين من الطّرقيين وأهل البِدَع.

لقد كان الإبراهيميُّ يرى أنّ إعداد الإنسان وتكوينه تكوينا متينا واعيا؛ أبقى للفكرة وأسلم عند العوارض، وبهذا يميل إلى أنّ إعلان الثّورات على الأنفس الإنسانيّة وتحضيرها لأنْ تكون مهد كلِّ ثورة ومنبع كلِّ فكرة؛ أولى من إعلان الثّورات على الأوضاع والأحوال ذلك أنّ الفكرة إذا كانت نابعة من داخل النّفس الإنسانيّة وجدت لها في الواقع استجابة، وإذا جوبهت بالعوارض والعوائق تخطَّتْها بسهولة تقابل سهولة تراجعها إذا ما كانت الفكرة مقبلة على النّفس من خارجها، وعلى هذا الرّأي كان تكوين الرّعيل الأوّل الذي نذره ابن باديس والإبراهيمي رصيدا لبدايّة الحركة الإصلاحيّة عند إعلانها.

أيقن الرّجلان أنّ ما ينتظرهما في الجزائر كثيرٌ وطويلٌ ودقيقٌ، ولذلك فقد استعانا على الكثرة بتحضير العون والرّفيق، وعلى طول المسلك بتنويع المتكوِّنين صغاراً وكباراً، ليُنجَز المستعجَلُ بكبار السّن ويُنجز اللاَّحق بالخَلَفِ النّاشئ يرفد كِلاَ السّعْيَيْن حِكمة ظاهرة واتِّساع أفق، وبصيرة نافذة، وبها قُوبِل الوضع الاستعماريُّ المتربِّص بمخلَّفاته على الأرض من قوانين رادعة، وعملاء مرتزقة، وحاجة مادِّيّة ملحّة.

وبينما كانت فرنسا تمُنِّي النّفس باستقرار الوضع العام في الجزائر بعد إخماد كلِّ الثّورات الشّعبيّة واستكمال بسط نفوذها العسكري والإداري على القطر كلّه نهايّة القرن التّاسع عشر وبدايّة القرن العشرين؛ كانت مجالس الرّجُلين الهادئة المنتظمة تهيّئ الإنسانَ الجزائري الجديد، وتشحنه بما يسترجع به دينا ممتهنا، ولغة مستنكرة، وأرضا مغتصبة وعرضاً مستلباً، وبدايّة من العقد الثّاني بدأ الرّوّاد الأوائل في حلقات الشّيْخَيْن ومجالسهما المنتظمة والعفويّة يتعرَّفون على ذواتهم، ويحدِّدون هُوِياتهم فسمعوا معاني لم يكن لهم بها عهد، وفهموا قيما كالكرامة الإنسانيّة، والحريّة والذّاتيّة والتّميُز، وتعلَّموا كيف أنّ ذلك حقٌّ طبيعيٌّ مكتسبٌ بالفطرة لا تُشرَع مصادرته، ولا يحقُّ لأحدٍ امتلاكه أو التّصرُّف فيه، وفوق هذا الفهم، أدركوا أنّه يجب أنْ يَشترِك معهم عمومُ الجزائريّين في ذلك، بما يدفعهم إلى المطالبة، وتلك كانت البدايّة.

مقوّمات الإعداد الوسائل والمجال: كان إعلان جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين في ماي **1931**م في حقيقته نهايّة مرحلة وبدايّة أخرى، أو بالأحرى هو نقطة تحوُّل من البناء

الفردي والإعداد الذّاتي إلى بدايّة العمل الجماعي، وتجاوُز الفرديّة المحصورة إلى الجماعيّة في مداها الواسع وتنوُّعاتها المتداخلة وتأثيراتها العميقة.

دأب الإمامُ الإبراهيمي ينافح عن مقوّمات إعداد الإنسان الجزائري المأمول لنفسه وقومه، فاعتبر الفهم الصّحيح للإسلام عقيدة وسلوكاً أساساً ابتدائيًّا يقوم عليه ما بعده من الوعي والممارسة ذلك "أنّه دين فطريٌّ روحيٌّ، يحمل في طيَّاته نهايّة الكمال الإنساني، وأنّ أصوله بُنِيت على حكمة خالق الحكمة، فنجد في عقائده غذاء العقل وفي عباداته تزكيّة النّفس، وفي أحكامه رعايّة المصلحة، وفي آدابه خير المجتمع[4]" وتأسيس الإبراهيمي لإعداد الإنسان على أساس دينيٍّ لم يكن فيه نشازًا، فدعوات مؤسِّسي الدّول وروَّاد النّهضات يشتركون في اعتماد عقيدة مَا لما يُؤسِّسون، وهذه حضارات الأقدمين لم تخلُ أيٌّ منها من بُعْدٍ دينيٍّ بشكلٍ ما، ونُظُمُ المذاهب الوضعيّة كلّها لا تخلو من عقائدَ بوجه ما، حتّى أنَّ أشدّ دعاة استبعاد الدّين في نُظُمِهم وتشريعاتهم لم يستطيعوا التّخلُّص من البُعد الرّوحيِّ في مشروعاتهم، وأضحت نظرتهم إلى أفكارهم ونُظُمِهم عقيدة، وهذه حضارات الهنود والصّينيِّين واليونان والرّومان والفراعنة والفرس في الأوَّلين، وهذه اتِّجاهات الرّأسماليين والشّيوعيِّين والاشتراكيِّين في الآخِرين.

ولمّا كان من غير الممكن استبعادُ أحدِ شقَّيْ التّكوين الفطري الإنساني (الرّوح) من دائرة الإعداد والتّوجيه في حياة النّاس؛ فإنّ الجدال تحوَّل إلى أصلح العقائد مراعاة لحال الإنسان وأكمل الأديان وفاءً لحاجته، فخاض فيها كلٌّ بما بدا له بحقٍّ أو بباطل، أمّا الإبراهيمي -وهو من له بأحوال الشّعوب وأديانها واسع العلم- فيُقرُّ في غير تردُّدٍ بأنّ "التّاريخ لم يشهد دينًا جمع بين مطالب الرّوح والجسم، إلاّ هذا الدّين وأنّ السّعادة لا تتمُّ في الدّارَيْن إلاّ بالتّوفيق بين المطلبَيْن، وهذه عقبة العقبات في طريق السّعادة، وسبب الأسباب في استكمالها أو اختلالها[5]" وهكذا يستقرئ الإبراهيميُّ تاريخ الإنسان الجزائري المعاصر، ولا يتردَّد في تقرير مبدأ التّكوين الدّيني الذي طالما استدلّ في كلِّ مناسبة على ضرورته وجدواه.

لقد اتَّخذ الإبراهيمي من استتباع الطّرقيِّين لسواد الشّعب الجزائريِّ حُجَّة ظاهرة في قُدرَة الدّين على تأطير الفرد والمجتمع ولو كان ادعاءً استغفل به "المرابطون" و"شيوخ الزّوايا" الشّعبَ بما للدِّين من مكانةٍ في نفسه، وهي النّاحيّة الأخرى التي لمس فيها الإبراهيمي ركون الإنسان الجزائريِّ إلى الدّين كغيره من بني الإنسان، بصرف النّظر عن سقيم الدّين وصحيحه، إذ في ذلك الميلِ إشباعٌ لحاجة الرّوح الفطريّة، ومن هنا كانت

دعوته الإصلاحيّة ضمن إطار جمعيّة العلماء دعوةً إلى تديُّنٍ صحيح، والتّزام فاعل، وتمثُّل إيجابيٍّ لمقتضيات الدّين ما دام أصل الميل نحو التّديُّن قائما فيه بالفطرة، وفي وعيٍ كاملٍ منه بموقع الجزائريِّ من الدّين وموقع الدّين منه؛ راحت جهوده تُحيي في الجزائريِّ جذوة التّديُّن الصّحيح وتنقذه من حيف الأفكار والنُّظم على مستوى العقيدة، وتُولِّد فيه حركيّة اجتماعيّة توظِّف الطّاقة الفرديّة توظيفًا واعياً مثمراً لقد راح يوجّه هذا الإنسان إلى "ميلادٍ لتوظيف الطّاقة الفرديّة للتّغيير الواعي في الذّات والمحيط والآخر في نطاق الزّمان والمكان[6]" وعلى الجملة فلقد كانت جهود الإبراهيميّ على هذا الصّعيد إعادةَ تأهيلٍ يرتقي بالجزائريِّ إلى مستوى الإنسان بعد أنْ مكث الاحتلال ردحا من الزّمن يعامله على أنّه شخص.

موقع اللّغة في بناء الإنسان الجزائري عند الإبراهيميّ: تبرز تَلازُميّة ثنائيّة الدّين الإسلامي واللّغة العربيّة أصلا ركينا لبناء الذّات الجزائريّة في فلسفة رجال جمعيّة العلماء كلِّهم، وعند الإبراهيميّ تحديدا بوصفه أحد أهمِّ أعمدة الجمعيّة ومنظِّريها، وترقى اللّغة عنده إلى درجة يُوكِل إليها استكمالَ ما بدأه الدّين على مستوى بناء الضّمير وتوجيه التّفكير، فتبرزه اللُّغة في طبيعة التّعبير، وإذا صنعت العقيدة وحدة خفيّة تقف وراء كلِّ سلوك؛ فإنّ اللّغة الموحَّدة تُعلن عمّا أُضمِر، وتُفصِح عمَّا أُسِرَّ، ويقرُّ هذه المتلازمة في "أنّ الدّين هو اللُّغة، وأنّ اللُّغة هي الدّين، فبينما هما دين ولغة، إذا هما شيء واحد، وإذا تلك النّفوس التي كانت بعيدة عن مزاج هذا الدّين، وعن مزاج لُغَته، تعتقد أنّ معنى العربيّة جزءٌ من الإسلام وإذا بهذا الدّين وبهذه اللّغة يُقرِّبان البعيد من تلك الأهواء، ويؤلِّفان بين المتنافر من تلك الميول[7]"

ومن عجيب نظر الرّجل؛ أنّ اعتمادَهُ مبدأَيْ التّديُّن بالإسلام الصّحيح، وتمثُّل اللِّسان العربي الأداة المقدَّمة في التّعبير؛ لم ينصرف بهما إلى الذّات العربيّة المسلمة، ولم تكنْ دعوتُه إليهما حصرا لتأثيرهما في مجال مغلق، بل على العكس من ذلك تماما، حين يعتمدهما نقطتَيْ ارتكازٍ للفرد الجزائري المسلم إسلاماً صحيحاً المعتزِّ بلغته اعتزازاً واعياً، فينطلق بهما نحو العالم الإنسانيِّ الكبير، وقد اكتسب بهما حصانة تمنع عنه الذّوبان في الآخر، وتدفع عنه الضّياع بين الأديان واللُّغات فيقول:

"ثمّ تصحو الأفئدة وينكشف الغطاء عن حقيقة واحدة، وهي أنّ تلك الجنسيّات تلاشت في هذه الجامعة التي لا تعرف جنساً وجنساً، وإنّما تعرف الإنسان لأنّه إنسان يترقّى بمواهبه ويُكرّم بتقواه، شيئان أَوْفَيَا بالعالم الإنسانيِّ على مشرع السّعادة[8]" فلم يكن تحيُّزُه

الصّارخ للإسلام دينا، وللعربيّة لغةً، بوصفهما مقوِّمَيْن أساسَيْن لبناء الإنسان الجزائري عصبيّة جاهليّة، ولا تشدُّداً ممقوتاً، بل كان تأسيسا منطقيًّا، وتوجُّهًا طبيعيًّا رأى أنّ إسهام الإنسان الجزائري في تحقيق الشّهود الحضاريّ، والاشتراك في دورة الحياة الاجتماعيّة المحلِّيّة والإنسانيّة العالميّة، لا يُدرَك إلاّ من خلال أصالة التّكوين الذي يولِّد القدرة على إدارةِ فاعليّة التّأثير في الآخر وإيجابيّة التّأثُّر به، فلا يكون حظُّ الاشتراك في البناء الإنسانيِّ على حساب الذّات المنهكة داخليًّا، المضطربة لسانيًّا.

ولعلّ ألصق الأوصاف بالأستاذ الإبراهيمي في علاقته ببني وطنه، هو وصفُ الأبوّة المعلِّمة المشفقة، التي ترى في إسداء النّصح، والأخذ باليد أنبل ما يمكن أنْ تقدّمه قامةٌ علميّة واعيّة مخلصة لأمّتها، ومن هنا كانت كلُّ جهود الإحياء الإبراهيمي لمعاني الإنسان في نفسيّة الجزائريِّ متّجهة نحو إعادة التّأهيل لما غطّى عليه تجهيلُ الاحتلال، ودجَلُ الطّرقيِّين من طاقات الذّات الجزائريّة وقدراتها، ملتزما في ذلك بمسلك التّربيّة والتّعليم، ولما كانت درجات التّأهيل البشري متفاوتة ومجالاته مختلفة لم يكتفِ الإبراهيميُّ بإعادة التّأهيل على المستوى الدّينيِّ فحسب، بل تَساوَقَ ذلك التّأهيلُ مع تأهيلٍ لغويٍّ يُؤمِّن تواصلاً ناجحاً، ويُنجِز نسقاً اجتماعيًّا متجانساً، يرى في اللُّغة إطاراً إضافيّاً تحتمي به الجماعة النّاشئة "فالإنسان كفرد لا يستطيع أنْ يُفصح عن رغباته ودوافعه وحاجاته إلاّ باللّغة الجسديّة الإيمائيّة أو الرّمزيّة التي طوَّرها عبر مراحل تاريخه الحضاري... ومن النّاحيّة الجماعيّة فاللّغة تُعدُّ أيضا أُولى خطوات الإحساس بالقُرب والحياة المشتركة والانتماء وتبادل المنافع[9]" وبإعلان أعلام الجمعيّة عن العمل الإصلاحي المنظَّم الشّامل انفتحت على العلماء جبهاتٌ اجتماعيّة أخرى واتّسعت دائرة الاهتمام لتشمَلَ كُلَّ من يُحسَب فردا من المجتمع الجديد.

النّخبة الجزائريّة بين اللّغة والهُويّة: بعد إعلان الجمعيّة عن مشروعها الإصلاحي وجد العلماء أنفُسَهم أمام فئات مجتمعيّة عديدة، منها ما يعدّ مكوِّنات طبيعيّة كالطّفولة والمرأة والعُمَّال والفلاَّحين، وذلك تشكيلٌ طبيعيٌّ في كلِّ مُجتمع، لكنَّ غير الطّبيعيّ في الوضع الجزائري هو الحال الذي صيَّر إليه الاحتلالُ هذه الفئات من تجهيل الطّفولة وتهميش المرأة، واضطهاد العمَّال والفلاَّحين، والأنكى من ذلك هو ما عمَدَ إليه من إنشاءُ فئاتٍ ذات مواصفات أخرى داخل النّسيج الطّبيعيّ للمجتمع الجزائري، وتكوينُه لفئات هجينة على الجبهات الرّئيسة الفاعلة فيه، فاستهدف الواقع الدّيني الجزائري بما يُضعِفُ

الوازع الدّيني، ويهزُّ رابطتَهُ بحملات التّنصير ودعوات التّجنيس، وتشجيع رذائل الأخلاق والدّسيسة بالكفر والإلحاد، كما استهدف الواقع اللُّغوي، فتوجّه إلى اللِّسان الجامع بوصفه عنوان التّميُّز وعنصر الانتماء فعاث فيه إفسادا بالفرنسة والتّغريب، ومُضارّته بالعامِّيّة على أحسن الأحوال، وإذكاء روح العصبيّة اللُّغويّة باستنفار المكوِّنات اللُّغويّة الطّبيعيّة المتعايشة ضدَّ بعضها، وما كان لجهود الاحتلال -التي أسَّس لها باحثون أكاديميُّون لزمن طويل وسهر على تنفيذ تفاصيلها حُكّام وسياسيُّون، ورعاها بالقوّة ضُبّاط عسكريُّون-أنْ يكون لها من الجزائريِّين نصيب، لولا يقينُها بأنّ هذه الصّنائع ستكون وبالا على إخوانها، وخليفتها على دكِّ الأصيل من مُقوّماتهم.

لقد أنتج المخبر الكولونيالي الفرنسيُّ منذ بدايّة الاحتلال وإلى مشارف القرن العشرين (على الجبهة الدّاخليّة الجزائريّة) ثلاثة نماذج بشريّة كبرى في وجهتها الثّقافيّة واللُّغويّة:

1-فئة عديمة الثّقافة يلفُّها الجهل والأمِّيّة، قد وقفت ظُروفُها الاجتماعيّة والاقتصاديّة التي ألجأها إليها الاستعمار عن قصد، مانعا من مزاولة أيِّ شكل من أشكال التّعليم، وتلك كانت غالبيّة الشّعب وعامّته، ومعظمُهم من بقايا الفلاّحين والعُمّال الكادحين.

2-فئة تهيَّأت لها ظروف اجتماعيّة ألحقتها بشيوخ الزّوايا وطُرقهم، وصاروا من صفوتها، قد أخذوا شيئا من أوّليّات العلم، وكثيرا من سوء الفهم، ومع الزّمن أضحت هذه الفئة تشكيلا ظاهرُهُ جزائريٌّ، وباطنه وَلاءٌ أعمى للاحتلال عن جهل وتبعيّة، فكان لهذا أداة هدمٍ جزائريّة في يدٍ فرنسيّة.

3-فئة قليلةُ العدد من صفوة المجتمع الجزائري المادِّيّة والاجتماعيّة انتقَتْها عَيْنُ الاحتلال عن علم وقصد وأحاطتها بشيء من العنايّة المتوجِّسة، وبلغت بها أعلى ما يمكن أنْ تسمح به من درجات التّكوين في مدارسها الثّلاث التي أعدّتها لتخريج مثقّفين تحت الطّلب، من المترجمين والأئمّة والقضاة، تحقيقاً لحاجة الاحتلال واستبقاءً لأمده.

أمّا على الصّعيد الخارجي؛ فقد ألجأت الظّروف الاجتماعيّة والاقتصاديّة، وحتّى السّياسيّة كثيرا من الجزائريِّين إلى الخروج من الجزائر ميمِّمين قِبَلَ المشارق والمغارب ومنهم فئة يمَّمت تِلْقاءَ البلد المحتلِّ (فرنسا) وتكاثر عدد هذه الفئة حتّى أصبح تشكيلا قائما، حين وجد نفسه نسيجاً بين تَفكيرَيْن وواقعَيْن وانتماءَيْن ولُغتَيْن.

وما سنتعرض له هنا هو كيفيّة تعامُل الإبراهيمي مع النّموذج الثّالث من فئات المجتمع الجزائري الثّلاث، وهي الفئة المثّقفة بالثّقافة الفرنسيّة، والمتعامِلة بلُغتِها، وكذا الجاليّة الجزائريّة بفرنسا.

اتّسعت رؤيّة الجمعيّة مطلع الثّلاثينات -أي بعد إعلان اعتمادها مباشرة-لتطال كامل فئات المجتمع الجزائري أفقيا، وتركّز وجهة التّكوين الفردي ونوعيَّته عموديا وتحمَّلت في ذلك ما يُنظَر فيه للجمعيّة ورجالها بعين الإكبار، وربَّما الاستغراب أحيانا، إذ كيف لجمعيّة مُضيَّقٍ عليها، وعلماء مُطارَدين أنْ تكون لهم هذه الرّؤَى وتمتدَّ جهودُهم فتستوعب كلَّ هذا المدى!؟ ثم لا تلبث أماراتُ الاستغراب أن تنجلي حين تعلم أنّ وراء تلك النّظرات رجال من أمثال الإبراهيمي.

النّخبة الجزائريّة المزدوجة اللُّغة والمثّقّفة بالثّقافة الفرنسيّة بين اللُّغة والهُويّة: في مقال صدر للأستاذ الإبراهيمي بعنوان "واجب المثقّفين نحو الأمّة" يقدِّم فيه اسما ثقافيًّا هو عبد السّلام مزيان ويعدّه في مقدّمة مقاله من "الأفذاذ الذين **تذوّقوا ثقافَتَيْن تصطرعان بهذه الدّيار، وعملوا للتّوفيق بينهما** للخير العام[10]" والظّاهر أنَّ المقال قد صدر في فترة احتدم فيها الصّراع الثّقافي حول موقع الثّقافتَيْن واللُّغتَيْن العربيّة والفرنسيّة، بدايّة الأربعينيات من القرن العشرين (1943م) وأنّ بلوغ اللُّغة والثّقافة العربيَّتَين درجة أصبح لها فيها أنصارٌ وأتباع، وأضحت في موقع التّثاقُف مع الثّقافة واللُّغة الفرنسيَّتَيْن، في مقابل تذكُّر الواقع الذي كانت عليه العربيّة وثقافتها قبل عقدَيْن، فيعدّ ذلك مَكسبًا كبيرا لعلماء الإصلاح، وللشَّيخ الإبراهيمي ذاتِه، الذي كان يراقب الوضع الثّقافي عن كثب، ويقف من الجميع على مسافة واحدة فيقول: "وأنا أزعُم أنّي من المشتغِلين بمراقبة هذه الحركات في الأمّة، والمعتنين بتسجيلها لأنّها متعلِّقة بأعمالي الفكريّة والتّعليميّة والإرشاديّة، ولأنّني مُتَّصِلٌ بالطّرفَيْن اتِّصالا وثيقا وعالمٌ بما لكلٍّ منهما على الآخر من واجبات، وعاملٌ بجهدي في تقريب ما بينهما من مسافة، وإزالة ما بينهما من تنافر[11]" لقد أخذ الإبراهيميُّ على عاتقه مسؤوليّة جمْعِ ما فرَّقه الاحتلال، والتّوفيق بين منْ فرَّقتهم الظّروف وهم فروعٌ لِأصل، وبينما نبغ في اللّغة العربيّة وثقافتها رجال أخذوا بحظٍّ في الجزائر وغادروها إلى المشرق (الحجاز الأزهر، الزّيتونة) فاستزادوا، وكانت وجهتُهُم أقرب إلى بيئتهم الأولى، فلم يُحدِث ذلك في نفوسهم ما حدث لإخوانهم الذين كان تكوِينُهم فرنسيًّا في الجزائر أو في فرنسا والذين ظلُّوا طيلة مدّة تكوينهم تَتَنازَعُهم ثقافتان وهويتان، وإذا

وَجَدت النّخبة الجزائريّة الملتحقة بالمشرق جوًّا لا تكاد تجد فيه تمييزا، ولا صعوبة في الاندماج بفعل التّاريخ والجغرافيا واللِّسان، فإنّ أفراد النّخبة الجزائريّة التي التّحقت بفرنسا "وجدوا في باريس لا مبالاة الجماعة التي تحجُب عن الأفراد فُرصَ الالتّفات إلى بعضهم البعض، فكان الطّالب الجزائريُّ مهتمًّا بفرنسا، ولكن الفرنسيِّين لم يكونوا يبالون بذلك[12]" ومن التّجارب القاسيّة المدوَّنة الشّاهدة على ملامح تلك الوضعيات تجربة مالك بن نبي حين كان طالبا هناك، وما سجَّله في (مذكِّرات شاهد للقرن) والعديد من التّجارب التي كان الجزائريُّون يرجون من فرنسا الحضارة، ما لم يتحقَّق، ولعلَّ ذلك ما جعل مثقَّفا شهيرا بالثّقافة الفرنسيّة كفرحات عبَّاس يُصرِّح بعد يأسه من قبول الحضارة الفرنسيّة له ولأمثاله "إنَّ ثقافتنا لم تفصِلنا عن شعبنا، بل بقي فكرُنا دائما عالقا به، لاصقًا بأولئك الذين بقوا وراء القافلة[13]" وهو الذي كان قد اشتهر عنه قوله قبل ذلك "أنا فرنسا" ولربَّما في الوقت الذي كان فيه هؤلاء المثقَّفون محلَّ غبطة كثيرين، فإنّ معاناتهم كانت شديدةً فقد وجدوا أنفسهم من ناحيّة أولى مدينين لأصولهم العربيّة الإسلاميّة بسبق الانتماء، ثمَّ اصطدموا بخيبة أملٍ في مجتمع فرنسيٍّ لم يحسن وِفادتهم، من ناحيّة أخرى، وهم الذين تركوا ما خلفهم، وأقبلوا على ما أقبلوا.

ولا يُستَبْعَد أنَّ الأستاذ الإبراهيميّ كان على علم بالوضع الدّقيق الذي كانت عليه النّخبة الجزائريّة المثقَّفة بالثّقافة الفرنسيّة والنّاطقة بلغتها، وأنّه كان يقف منها موقف المشفِق المتفهِّم. لا موقف المعاتِب لحالهم، بل أمّل منهم أنْ يصلحوا ما استقبل من مآلهم. وفي معرض بسط موقفه منهم كمثقَّفين جزائريِّين، لم يتوجَّه إليهم بالحديث رأسا، بل جمع بينهم وبين النّخبة المعرَّبة في جراب واحدٍ؛ بحكم نُخبويَّتِهم، حتّى إذا بلغ مواطن الاختلاف بينهم خصَّ كلَّ فئة بما يراه لها.

يرى الإبراهيمي أنّ على المثقَّفين الوطنيِّين "إصلاح أنفسهم قبل كلِّ شيء، كلّ واحد في حدِّ ذاته، إذ لا يُصلِحُ غيرَهُ من لم يُصلِحْ نفسَه، ثمّ إكمال نقائصهم العلميّة واستكمالُ مؤهِّلاتِهم التّثقيفيّة حتَّى يَصلُحُوا لتثقيف غيرهم[14]" وهو في ذلك لم يُعيِّن جهةً دون أخرى بل اعتبرهم رصيدا وطنيا، وإنْ نُشِّئُوا على ثقافة أخرى وبِلُغَة أخرى وكأنَّه قد أيقن حقيقة مشاعرهم الخفيّة تجاه وطنهم الأصل، ورغبتهم المشروعة في اكتساب ثقافات ومعارف أوسع، فأقرَّهم على أوضاعهم، ولكنَّه طالَبَهُم بأنْ يكونوا حقِيقِين بقيادة الأمّة في مجالات معارفهم وعلومهم، وأهلا للصَّدارة على أهلها.

ويفصّل لهم ما سبق إجماله في نقاط أربع:

1-الاستعداد لأداء أدوار جديدة تتطلّب كفاءات جديدة.

2-وجوب الإسهام في إصلاح مجتمعهم بالتّقارُب والتّعارف.

3-التّركيز على أولويات الحياة، والإعراض عن الفضول واللّغو.

4-الاتّفاقُ على معيار لتصنيف المثقّف الحقيقيّ.

فإذا تمّت للمثقّفين هذه القواعد؛ أحالتّهم على الخامس الأخير وهو الهدف والرّجاء "الامتزاج بالأمّة، والاختلاط بطبقاتها، والتّحبُّب إليها، ومشاركتها في شؤونها الاجتماعيّة والدّخول في مجتمعاتها ومعابدها، ومشاركتها في عبادتها وفي الصّالح من عوائدها، فبذلك تحصل الثّقة منها وتنقاد لكلّ ما نريده منها[15]" وإذا كان الغالب من النّظر العام إلى هذه الفئة على أنّها متأثّرة بالثّقافة الفرنسيّة ومستخدمة للُغتها فإنّ الإبراهيميّ يرى معايير أخرى يقيّم من خلالها المثقّف ويحكم عليه من خلالها منها ما انطوت عليه من علوم ومعارف يحقّق بها المثقّف كفاءته، فيقدّمه المجتمع ولا يقدّم نفسه. أمّا عامل اللّغة؛ فمع عصبيّة الإبراهيميّ للّغة العربيّة، وإقراره بأنّ الأمّة الجزائريّة "ما تودُّ أنّ لها بها لغات الدّنيا وإنْ زخرت بالآداب، وفاضت بالمعارف، وسهّلت سبل الحياة، وكشفت عن مكنونات العلم، فإنْ أخذت بشيء من تلك اللّغات فذلك وسيلة إلى الكمال في أسباب الحياة الدّنيا[16]" ولقد يبدو موقفُ الإبراهيمي متعصّبا للعربيّة، لكنّ موقفه من النّخبة المثقّفة بغيرها لم يكن بسبب اللُّغة؛ بل عدّ اكتساب لغات أخرى سبيلا إلى امتلاك أدوات الرّقيّ الحضاريّ والتّطوُّر المادّي بالانفتاح على العلوم والتّقنيّة في لغاتها، غير أنّ نقمته على اللّغات الأجنبيّة تظهر حين يصبح تعليم اللُّغة الأجنبيّة في سنٍّ مُبكّرة فذلك "موضع الخطر على أبنائنا المتعلّمين بلغة أجنبيّة من غير أنْ يسبق لهم إلمامٌ بلُغتهم، ذلك أنّهم يحملون في أنفسهم ككلّ البشر، تصوُّرات ومعاني كثيرة، وحقائق علميّة، وتخيُّلات ذهنيّة ولا يستطيعون بيانها والتّعبير عنها بلغتهم العربيّة، في حال أنّهم يستطيعون التّعبير عنها باللّغة الأجنبيّة التي يتقنونها، فأدّت بهم هذه الحالة بالتّدريج إلى كراهيّة العربيّة وانتهت بهم إلى بُغضِها، ثمّ إلى الحقد عليها، واتّهامها بأنّها لغة قاصرة، ضعيفة أو ميّتة، لا تستطيع أنْ تُزاحم اللّغات أو تقوى على حمل الحضارات، ثمّ تنتهي بهم هذه الحالة إلى الانسلاخ من العروبة، وإلى احتقار الدّين الذي تُترجِم عنه هذه اللُّغة[17]" إنّ هذا التّحليل الذي يقدّمه الإبراهيميُّ في أثر تعلُّم لغة أجنبيّة قبل اللُّغة الأم أو معها هو الذي صاغ من خلاله موقفه

من لغة المثقّفين بغير العربيّة، فإذا وجد من اكتسب من اللّغات الأجنبيّة وقد سلم له تفكيره العربي، وتصوُّراته العربيّة، وانتماؤه العربيُّ وهُوِيَّته العربيّة؛ فذلك المثقَّف الحقُّ ومن ثمّ فهو لم يفاضل بين المثقَّفين على أساس لغتهم، أو مواطن دراستهم؛ بل وازن بينهم بمقدار ما يحقّقونه لأممهم من توازُن إذ "هم القَوَمَةُ على الحدود أنْ تُهدَم، وعلى الحرُمات أنْ تُنتَهَك، وعلى الأخلاق أنْ تَزيغ، وهم الميزان لمعرفة كلِّ إنسان حدَّ نفسه، يراهم العاميُّ المقصِّر، فيتَقاصَر عن التّسامي لما فوق منزلته، ويراهم الطّاغي المتجبِّر عيونا حارسة فيتراجع عن العبث والاستبداد[18]".

لقد كانت فلسفة جمعيّة العلماء هي التّعامل الحكيم مع مثل هذه الحالات والمواقف وهي فلسفة كان الإبراهيمي أحد أبرز مهندسيها وأكثر العلماء متابعة لتطبيقها، فقد كان العلماء يبذلون الجهد في استقطاب جميع من يرون أنَّ له عليهم حقٌّ في الوطن، وهي طريقة كانت لها آثار طيبة وممّا يستحضر في هذا السّياق استعراض الإمام الإبراهيمي لجهود العلماء في استنقاذ الكثير من هذه الطّائفة من بين يدي الإلحاد، والذي يتَّهِم فيه بعض علماء الدّين الجزائريِّين الذين وصفهم بالجامدين الذين كانوا يجتنبون هذه الفئة ويرمونها بالكفر "وبهذه العادة السّيِّئة كادوا يُضيِّعون على الأمَّة **طائفة من أبنائها، هم ذُخرُها للمستقبل، وعدتُها للشِّدَّة**، ولكنَّ رجال جمعيّة العلماء يَعْلَمُون أنَّ هذه الطّائفة المعرَّضة للإلحاد هي **زهرة الأمّة**، وأنَّها **جديرة بكل عنايّة واهتمام**، وأنَّها - وإن لم تسلم من طائف الإلحاد - سالمةٌ من الجمود والتّخريف وأنَّها أقرب إلى الإصلاح والرّجوع إلى الحقِّ بما معها من إدراك صحيح وبما فيها من مَلَكَات الاستدلال، لذلك مازجوا هذه الطّائفة وخلطوها بأنفسهم، وعرفوا كيف يجذبونها إلى المحاضرات والدّروس الدّينيّة، فكان لهذه الطّريقة الرّشيدة أثرُها الصّالح في تقويم زيغ الزّائغين منها وإرجاعهم إلى حظيرة الدّين بكلِّ سهولة، ونتجت عن ذلك نتيجة أخرى وهي تحبيب هذه الطّائفة في اللُّغة العربيّة حتَّى أصبح الكثيرُ منها معنيًّا بها، نادمًا على ما فرَّط في جنبها، متداركًا بقدر الإمكان ما فاته منها[19]".

وبتجميع معالم الرّؤيّة الإبراهيميّة لهذه الفئة وصفا لحالها، وتصويرا لما يُرجى منها نقف على أنّ هذه الموقف كان لاعتبارين:

1-عدم التّفريط في طاقاتٍ تُحسَب على الوطن الجزائري الأم، حين لم يحسن وفادتهم الوطن الذي حسِبُوه بديلا، فخاب ظنّهم، وإنَّ في التّفريط فيهم بابٌ لاستغلالهم أداة ضد أصولهم، وكفى بها خسارة لأنفسهم وأمّتهم.

2-إمكانيّة استغلال طاقات هذه الفئة بعد تهذيب تصوُّراتها المكتسبة في الثّقافة الفرنسيّة عن الهُويّة الأصل وعناصر الانتماء العربيّ الإسلاميّ، وتنقيّة أفكارها لما يخدم ذواتها وأمّتها وهو بلا ريب مكسب ثمين لمورد بشري نوعيٍّ.

ولعلَّ ما يُعزِّز الحكم على هذه الرّؤيّة الإبراهيميّة نحو هذه الفئة؛ هو اهتمامه في إطار جمعيّة العلماء بشأن الجاليّة الجزائريّة في فرنسا، والتي كان يتعهّدها بالمتابعة والرّعايّة فأحصى عددها، وخَبَرَ وضعها، وهيَّأ لها من يقوم على ربطها ببلدها وأُمَّتها، ففُتِحت لذلك شُعَب جمعيّة العلماء، والنّوادي ومكاتب التّعليم العربيّ، وتنظيم نشاطات التّوعيّة الدّينيّة والإرشاد الأخلاقي، بهدف تحصين هذه الجاليّة ضد ثقافة البيئة المستضيفة وسلوكاتها، واعتبر التّفريط فيها سلخا لقطعة من الأمّة الجزائريّة يتبعه سلخ أجيال، فما كان من الجمعيّة إلاّ أنْ "نَدَبت أحدَ شبابها المجاهدين، وهو الأستاذ الفضيل الورتيلاني للقيام بهذا العمل في باريس سنة 1936م، فأسّس في سنة واحدة ثمانيّة عشر مركزا تعليميًّا في باريس وأطرافها، ثمّ وسّع الحركة إلى المدن الكبيرة في جنوب فرنسا وشمالها وتعدّدت المراكز، وأمدّته الجمعيّة بالمعلِّمين، فكانت تلك المراكز تُعلِّم الأطفال العربيّة والدّين لساعات من النّهار، فإذا جاء اللّيل أقبل الكبارُ فتلقّوا دروسا سهلة في أصول الدّين وفروعه ومارسوا العبادات العمليّة[20]"

لقد كان الإبراهيمي في كلِّ ما سبق من نظرته وجهوده في التّربيّة والتّكوين للفرد الجزائريِّ داخل الوطن، مستوعبا لحقيقة الإنسان الجزائري داخل وطنه وخارجه، فأمّا داخل وطنه فكان الموقعُ الأمُّ الذي تركَّزت فيه الجهود، واستنفذ فيه كلَّ طاقاته في إعادة البعث، وعمل فيه على جودة التّأهيل، وأمّا الذين نَأَت بهم الدّيار فلم يحرمهم حقَّ الانتماء، ولم تقف حواجزُ المسافة، ولا ظروف التّعليم ولا نوعيته مانعا دون سعيه لضمِّ هؤلاء إلى حظيرة الوَلاَء الوطنيِّ بشقَّيْه الدّيني واللُّغوي، وخاطب هذه الفئة بما خاطب به إخوانها في الوطن، وهو بذلك إنّما خاطب الإنسان الجزائري، فرَأَبَ بذلك صدعا طالما وسّعه الاحتلال بالمفاضلة بين الأشقّاء، وجمع بذلك طرفَيْن كثيرا ما تنازعا الأفضليّة والأحقِّيّة، فرمى أحدُهما الآخر بالرّجعيّة والقَدَامة، وردَّ الآخر التّهمة بالوصف بالخيانة والاغتراب، لكنَّ المعايير التي نظر

بها الإبراهيمي إلى النّخبة الجزائريّة تنصرف إلى مدى الكفاءة، ومقدار الوفاء للقيم، ودرجة خدمة الأُمَّة وردِّ حقِّها على نُخبها، وبذلك لم تُبْقِ سندا لمتهم بتُهمة، ولا لمحتكر مجالا لاحتكار فالكلُّ متَّهم بتقصيره وأنانيته وذاتيّة وأَثَرَتِه، والكلُّ بريء ببذله وعطائه وإيثاره ووفائه.

الرّؤية الإبراهيميّة حول النّخبة المثقَّفة باللُّغة الفرنسيّة والنّاطقة بلغتها في نظر علم الاجتماع اللّغوي: تبدو مواقف الأستاذ الإبراهيمي حول اللُّغة جَانحة نحو الشّطط والتّعصُّب، ومن ثمَّ قد ينشأ الارتياب في حقيقة موقفه من النّاطقين بغير العربيّة، أو المثقَّفين بثقافتها، فيُظَنُّ أنَّه موقف المنكِر أو الكاره، أو على الأقل المفضِّل للمعرَّبين عليهم، والواقع أنَّ موقف الإبراهيمي هذا طبيعيٌّ جدًّا عند علماء الاجتماع اللُّغوي، والذي يبرِّرونه بحالة الخوف الشّديد من **الانقراض اللُّغوي**، فتظهر نزعة فرديّة أو جماعيّة تتشبَّث بلغتها لدرجة يبدو فيه شيءٌ من الإسراف، وهو ما يسمِّيه العلماء: **الإخلاص اللّغوي** Fidélité linguistique "أي مدى قوَّة متكلِّمي لغةٍ ما ... في التّعلُّق بلغتهم وفي الذّود عنها ضدَّ **الغزو اللُّغوي** لكثير من اللُّغات ذات الانتشار الواسع[21]" وبفعل واقع الاحتلال؛ فقد كانت اللُّغة العربيّة محاصَرَةً بتشريعات منع التّعليم والاستعمال والتّداوُل، وذلك ما ولّد لدى المنتسبين لها شعورا بالخوف عليها، وهو ما لمسناه عند الحالة الإبراهيميّة، وتلك حالةٌ تكرَّرت وتتكرَّر في بيئات لُغويّة كثيرة في شتَّى بلاد العالم.

كما أنّ إصرارَ الإبراهيميّ على تمكين الجزائريّ من لغته سواء في بلده أم في فرنسا، وسواء مُنِع من تعلُّم العربيّة في بلده، أم أُرغِم على تعلُّم الفرنسيّة، فإنَّ ذلك نابعٌ من إدراكه **بالحقِّ اللّغوي للفرد والجماعة** كما يصطلح عليه العلماء، إذ يقترحون مناهج لتمكين المتكلِّمين من حقوقهم اللُّغويّة، والتي لا تختلف عن الحقِّ في الحياة والصّحَّة والتّعليم وغيرهما، وحتّى من وجهة نظرٍ أنتربولوجيّة فإنّ "كلَّ لُغة من اللّغات تحمل في ثناياها سِمَاتٍ وخصائص فريدة من نوعها، ونادرة مقتطفة من زَخَمِ الإرث الإنساني الثّرّ والمتنوّع[22]" ومن هنا فإنّ موقف الإبراهيمي من النّاطقين بالفرنسيّة والمثقَّفين بثقافتها؛ موقف محذِّر من صناعة جبهة تكون عونا على الإضرار بالعربيّة والإعانة على حصارها، وأنَّ حقَّ اللُّغة عليهم حفظُها والدّفاع عنها، وإنْ ألجأتهم ظروفٌ ما إلى استخدام غيرها.

وعلى صعيد آخر فقد كانت رؤيّة الإبراهيمي النّظريّة وممارساته العمليّة مشروعا وضع حدًّا للمشروع اللّغوي الاستعماريِّ المقابل، فارتقى بالإنسان الجزائري من وضع

الاحتكاك اللّغوي (Friction language) وهو وضعٌ تَرْزَحُ فيه اللُّغة بتحرُّش لغةٍ أخرى وتستكين لها تحت ظروفٍ مختلفة سياسيّة أو اقتصاديّة، وفي الحالة الجزائريّة كان للاحتلال دورٌ رئيس في تحرُّش الفرنسيّة بالعربيّة كنتيجة منطقيّة، وأثرٍ مباشرٍ للتَّحرُّش والامتهان الاستعماري بالشّعب الجزائري، وهو الوضع الذي لم تَقْبَل به اللُّغة العربيّة بعد جهود الإحياء والبعث، لتأتي مرحلة **الصّراع اللّغوي** (Conflit linguistique) وهي مرحلة تتجلَّى "أساسا في تبنِّي وفرض استخدام إحدى اللّغات على كثير من المتكلِّمين للُغات أخرى، وسواء أكانت سياسة الإملاء والضّغط هذه كنتيجة متوقَّعة لسياسة لغويّة مخطَّطٍ لها سلفا؛ أم كانت نتيجة حتميّة أمْلَتْها عواملُ اجتماعيّة طارئة أخرى[23]". فتحوُّل اللّغة العربيّة عند الفرد الجزائري -تحت تأثير جهود الإصلاح- من **مرحلة الاحتكاك** التي كانت تُبرِز الفرنسيّة سائرة في اتِّجاه تصاعُديٍّ دون إزعاج، إلى **مرحلة الصّراع** التي ظهرت فيها اللُّغة العربيّة مُسفرة عن وجهها في الإعلام والخطابة والتّعليم، وفي ذلك إبرازٌ لجانب من النِّدِّيّة والاقتدار على المقاومة والصّمود.

تلك على الجملة أبرز ملامح الرّؤيّة الإبراهيميّة للإنسان الجزائري بمقوماته الدّينيّة واللُّغويّة، وتلك آثارُها على التّشكيل الاجتماعي الوطني اقتصَرَت فيه هذه المداخلة على فئة المثقَّفين بالثّقافة الفرنسيّة والنّاطقين بلُغتها في الجزائر وفرنسا. وقد استعرضت التّوجُّه الإبراهيميّ، مُظهِرة لمنهجه في الدّعوة إلى المحافظة على عنصرَيْ الدّين واللُّغة في تركيبة العنصر البشري الجزائري، وهي في الحقيقة دعوة مبطَّنة بأدوات وإجراءات صناعة إنسانيّة هذا العنصر والارتقاء به لبناء صرح نفسه وحضارة أمّته.

وقد يمكن اعتبار الرّؤيّة الإبراهيميّة مرجعا يكتسب روح الاستمرار والبقاء والصّلاحيّة لإعادة الاستعمال، فموقفه هذا لا يزال صالحا لإعادة عرضه على النّخب المثقَّفة، واعتماده مرجعيّة تنفي -بمعاييرها التي صاغها الإبراهيمي- النّخبةُ عن نفسها دخَنَ النّخب ودَخَلَهَا كما تنفي النّارُ خَبَثَ الحديد، وتستبقي لها من هو حقيق بها ولكنّه تحدٍّ صعب ودقيق، ذلك أنَّ هذه الرّؤيّة في ذاتها مشروع ثوريٌّ على الأذهان والأفكار، قبل أن يكون استبعادا للأشخاص والذّوات، أو تقديما لها.

الهوامش:

[1] - محمّد البشير الإبراهيميّ "خلاصة تاريخ حياتي العلميّة والعمليّة" آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي، ط1. بيروت: 1997م، دار الغرب الإسلامي ج5. ص280.

[2] - جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين، سجل مؤتمر جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين دط. الجزائر: 2008، دار المعرفة، ص 50.

[3] - المرجع نفسه، ص 50.

[4] - محمّد البشير الإبراهيميّ، "الإسلام والمسلمون، شجون من الحديث عنهما وعن الإصلاح الدّيني". جريدة السّنّة. الجزائر: ع4، 6 محرم الحرام 1352/1ماي 1933م، ص 3.

[5] - محمّد البشير الإبراهيمي المصدر نفسه، ص3.

[6] - العربي بلقاسم فرحاتي، تأهيل الموارد البشريّة قديما وحديثا، ط1. عمّان: 2012م، دار أسامة للنّشر والتّوزيع، ص 166.

[7] - محمّد البشير الإبراهيمي "الإسلام والمسلمون، شجون من الحديث عنهما وعن الإصلاح الدّيني" ص3.

[8] - محمّد البشير الإبراهيمي، المصدر نفسه، ص 03.

[9] - العربي بلقاسم فرحاتي، تأهيل الموارد البشريّة قديما وحديثا، ص 95.

[10] - محمّد البشير الإبراهيمي، الآثار، ج5، ص 122.

[11] - محمّد البشير الإبراهيمي، "واجب المثقّفين نحو الأُمّة" الآثار، ج5، ص 122.

[12] - غي برفيلي، النّخبة الجزائريّة الفرانكفونيّة 1880م-1962م. تر: م-حاج مسعود وآخرون دط. الجزائر: 2007م دار القصبة للنّشر، ص 100.

[13] - فرحات عبّاس، ليل الاستعمار، تر: أبو بكر رحال. دط. الجزائر: 2011م، دار الجزائر للكتب، ص 98.

[14] - محمّد البشير الإبراهيمي "واجب المثقفين نحو الأمة" الآثار، ص 128.

[15] - محمّد البشير الإبراهيمي، المرجع نفسه، ص 129.

[16] - محمّد البشير الإبراهيمي "اختلاف ذهنَيْن في معنى التّعليم العربي" الآثار، ج3. ص281.

[17] - محمّد البشير الإبراهيمي "إلى مؤتمر التّعريب بالرّباط، الآثار، ج5، ص 260.

[18] - محمّد البشير الإبراهيمي "واجب المثقّفين نحو الأُمّة"، الآثار، ص 126.

[19] جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين، سجل مؤتمر جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين دط. الجزائر: 2008، دار المعرفة، ص 67.

[20] - محمّد البشير الإبراهيمي "مذكّرة إيضاحيّة"، الآثار، ج4، ص 168.

[21] - برنار صبولسكي، علم الاجتماع اللُّغوي، تر: سنقادي عبد القادر. دط. الجزائر: 2010م ديوان المطبوعات الجامعيّة، ص 140.

[22] - برنار صبولسكي، المرجع نفسه، ص 148.

[23] - برنار صبولسكي، المرجع نفسه، ص 139.